مقالتان للأنبا ميخائيل مطران دمياط من القرن الثَّاني عشر
تُنشران باللُّغة العربيَّة لأوَّل مرَّة

مؤتمر التُّراث العربي المسيحي الثَّاني والعشرون
المركز الثقافي القبطي بالكاتدرائية المرقسيَّة بالقاهرة
الجُمعة والسَّبت ٢٨ فبراير، و ١ مارس سنة ٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

السيِّد رئيس المؤتمر.
الآباء والإخوة، السيِّدات والسَّادة، الحضور الكرام.
يشرِّفني أن أتحدَّث إليكم في مؤتمر التُّراث العربي المسيحي في دورته الثَّانية والعشرين، ذاكراً بالفضل والتَّقدير، العُلماء الأفاضل الذين أرسوا قواعد هذا التُّراث، وأظهروه للنُّور.

حديثي إليكم اليَوم، هو عن مقالتين تُنشران باللُّغة العربيَّة لأوَّل مرَّة، للأنبا ميخائيل مطران دمياط الذي عاش في القرن الثَّاني عشر الميلادي، وعاصر كلٍّ من البابا مرقس بن زرعه (١١٦٦-١١٨٩م) الـ ٧١، والبابا يؤانس بن أبي غالب (١١٨٩-١٢١٦م) الـ ٧٢ وتوفى الأنبا ميخائيل بعد سنة ١٢٠٨م. وكانت له مساجلات ومباحثات مع القس مرقس الضَّرير بن موهوب، المعروف بابن القُنبر، الذي حرمته الكنيسة آنئذ بسبب تعاليمه. والأنبا ميخائيل هو أوَّل أُسقُف قبطي في مصر يحصل على لقب مطران، وقد انتقل اللَّقب إلى خلفائه على هذا الكرسي. كما أنه يُعد أكبر كاتب ظهر في الكنيسة القبطيَّة، كَتَبَ باللُّغة العربيَّة بعد الأنبا ساويرس بن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م)، وذلك من حيث تنوُّع الكتابات والهدف المشترك منها، وهو الدِّفاع عن عقائد وتقاليد الكنيسة القبطيَّة.

وألخِّص حديثي في ثلاثة بنود أساسيَّة هي:
أوَّلاً: ما يُعرَف عن مؤلَّفات الأنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثَّاني عشر.
ثانياً: عرض لمقال: ''العادات التي يتميَّز بها الأقباط''.
ثالثاً: عرض لمقال: ''الرِّسالة إلى مرقس بن القُنبر''.

أوَّلاً: ما يُعرف عن مؤلَّفات الأنبا ميخائيل مطران دمياط

(١) نوموكانون (مجموع قوانين) الأنبا ميخائيل مطران دمياط

وهو المؤلَّف الرَّئيسي له، ويضم ٧٢ فصلاً مع تقسيمات فرعيَّة. وهو واحد من أكبر ثلاثة نوموكانون عرفتها الكنيسة القبطيَّة حتى اليَوم، مرتَّبة ترتيباً موضوعياً.
الأوَّل هو نوموكانون البابا غُبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) في النِّصف الأوَّل من القرن الثَّاني عشر.
والثَّاني هو نوموكانون الأنبا ميخائيل مطران دمياط (+ بعد سنة ١٢٠٨م) وكتبه حوالي سنة ١١٨٨م، أي في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّاني عشر.
والثَّالث هو نوموكانون الصَّفي بن العسَّال (توفى ما بين سنة ١٢٥٣م وسنة ١٢٧٥م) في القرن الثَّالث عشر.

وأقوم حاليًّا بتحقيق نصِّ مجموع قوانين الأنبا ميخائيل مطران دمياط، من عدَّة مخطوطات، من بينها: مخطوط

رقم (عربي ٤٧٢٨) بالمكتبة الأهليَّة بباريس (١٨٨٥/١٨٨٦م)، ومخطوط رقم (عربي ١٠١٨٠) بمكتبة برلين (١٢١٠م). وبنشر هذا النُّوموكانون إن شاء الرَّب وعشنا، يكون قد توفَّر لدى الدَّارس القبطي، هذه الثَّلاثة نوموكانون السَّابق ذكرها، كأحد أهم المصادر القانونيَّة في الكنيسة القبطيَّة.

(٢) كتاب: "البغية لم طلب لنفسه الخلاص والنجاة يوم القصاص".

وهو كتاب يتألَّف من خمسة فصول. وقد ذكره ابن كَبَر في البَاب السَّابع من موسوعته ''مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة''، حيث أورد عناوين الأربعة فصول الأولى من الكتاب، مع التَّقسيمات الفرعيَّة لها. وفي حين يذكر الأب جورج جراف G. Graf (١٨٧٥-١٩٥٥م) أنه لم يعثر على هذا الكتاب حتى زمانه، أي حتى منتصف القرن العشرين، فإنَّ الأب بولس سباط (١٨٨٧-١٩٤٦م) يقرِّر أنه موجود في مخطوطين، حوزة ورثة شخصَين من كنيسة الرُّوم الكاثوليك، هما الخوري قسطنطين خُضري، والخوري روفائيل ربَّاط.

(٣) "رسالة إلى أحد عُلماء المسلمين"

وهي رسالة إلى أحد عُلماء المسلمين، كتبها الأنبا ميخائيل دفاعاً عن المسيحيَّة.

(٤) كتاب "البرهان" للأنبا ميخائيل

العنوان الكامل للكتاب هو: ''كتاب البُرهان ودليل الطَّريق الصَّحيح والنِّبراس القويم في ١٦ فصلاً حول تعليم الإيمان ومقاومة الملكيِّين''. ويجيء ذكره مرَّتَين في دلاَّل طقسي في مخطوط رقم (عربي ٥٨) بمكتبة الفاتيكان (١٧١٢م)، ورقات (٩٢ظ، ١١٤ج). ولكن نصَّه الكامل مفقود حتى الآن.

(٥) "تقرير عن حياة وتعاليم مرقس بن القُنبر"

وقد ورد هذا العنوان في كتاب ''تاريخ الكنائس والأديرة'' لأبي المكارم، والمنسوب خطأ إلى أبي صالح الأرمني. والمثير في هذا المقال، هو أنَّ الأنبا ميخائيل قد وبَّخ القس مرقس بن القُنبر على بعض التَّعبيرات التي قالها، وهي نفس التَّعبيرات التي وُجدت في كتابه ''المُعلِّم والتِّلميذ'' ذي الثَّمانية فصول. والجدير بالذِّكر هنا، أنَّ ما ذكره الأنبا ميخائيل موبخاً به القس مرقس بن القُنبر، صار هو الأصول الأولى في علم الدِّفاع عن المسيحيَّة في الأوساط الإسلاميَّة. وأمَّا النَّص الكامل لهذا المقال فمفقود حتى الآن.

(٦) "مقالة في الاعتراف"

وهي مقالة مختصرة، بدون ذكر المؤلِّف، موجودة في مخطوط رقم (عربي ١٤٥) بمكتبة الفاتيكان (ق ١٣/١٤)، ورقات (١٥٤ج-١٥٩ج). ترفض إلزام الاعتراف. ويتوجَّه كاتبها إلى ''أب'' أراد إقناعه بأهميَّة الاعتراف بالخطايا، بناءً على عظة للقدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)، يقول فيها: إنه لا يمكن لأحد أن يخلُص من عذاب الجحيم، طالما لم يعترف بخطاياه، حتى وإن صام وصلَّى وفرض على نفسه عقوبات شديدة.

وبمثابة رد على ذلك، يقدم المؤلِّف مجموعة من الأحكام مستخلصة من تفسيرات معلِّمي الكنيسة عن رسالة العبرانيِّين، وإنجيل متى، تبرِّر إلغاء الاعتراف، وتقول بأنَّ الاعتراف أمام الله فقط ضروري، ولكن ليس أمام النَّاس؛ وأنه هكذا قال غريغوريوس الثِّيؤلوغوس (٣٢٩-٣٨٩م)، وعلى كلِّ حال، يبقى من المفيد مراجعة شيخ صالح غيُّور، يعمل الصَّلاح لأجل شفاء النَّفس من الشُّكوك.

(٧) كتاب "العادات التي يتميَّز بها الأقباط"

وهو ما سأعرض له تفصيلاً الآن.

(٨) "الرِّسالة إلى مرقس بن القُنبر"

وهو ما سأعرض له تفصيلاً أيضاً.

ثانياً: عرض لمقال "العادات التي يتميَّز بها الأقباط"

العنوان الكامل لهذا الكتاب أو هذا المقال هو: ''العادات التي يتميَّز بها الأقباط الأرثوذكس عن بقيَّة المؤمنين والهراطقة''. وهو أوَّل ما كتبه الأنبا ميخائيل، في محاربته للتَّجديدات التي أدخلها القس مرقس بن القُنبر، لكـــي يحمي العادات القديمة للأقباط، مرتكزاً على شهادة التَّقليد.

ولهذا الكتاب أو لهذا المقال نصَّان؛

النَّص الأوَّل: وهو النَّص الأصلي والمطوَّل الذي كتبه الأنبا ميخائيل بنفسه. وهو محفوظ في مخطوطين بمكتبة الفاتيكان رقمي (عربي ١٥٨)، و(عربي ١٥٩). ولم يُنشر هذا النَّص المطوَّل باللُّغة العربيَّة حتى اليَوم. وكان الدُّكتور صموئيل القس قزمان معوض بجامعة مونستر بألمانيا، قد ساعدني – وله الشُّكر – في الحصول على صورة مـــن مخطوط رقم (عربي ١٥٩) بمكتبة الفاتيكان. وسوف أنشر هذا النَّص المطول في كتاب سيصدر لاحقاً إن شاء الرَّب وعشنا، بعنوان: ''مجموع قوانين الأنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثَّاني عشر الميلادي ونصـــوص بعـــض مؤلَّفاته الأُخرى''.

وكان الأب جورج جراف G. Graf قد نشر ترجمة ألمانية لفصل منه بعنوان: ''اســـتعمال البُخـــور عنـــد الأقباط'' وذلك في برسلاو Breslau بألمانيا سنة ١٩٢٠م. ثمَّ نشر ترجمة ألمانية كاملة له، في بادربورن Paderborn بألمانيا سنة ١٩٢٣م، تحت عنوان: ''محاولة إصلاح من داخل الكنيسة القبطيَّة في القرن الثَّاني عشر''[١]، ضـــمن منشورات المركز العلمي لجمعيَّة جورس Görres[٢] بأورشليم.

كما نشر الدُّكتور بورمستر O.H.E. Burmester فصلاً منه عن غسل الفم بالماء وأكل الفول بعد التَّنـــاول، وذلك في مجلَّة ''لوميزيون''[٣] Le Muséon في سنة ١٩٣٢م.

النَّص الثَّاني: وهو النَّص المختصر لهذا النَّص المطوَّل. حيث قام أحد المجهولين لدينا حتى اليَوم، بتلخيص هذا النَّص المطول، وتنقيحه[٤]. وفي الحقيقة كان حاذقاً في هذا الملخَّص أو في هذا المختصَر. إذ قدَّم وأخَّر في بعـــض فقرات النَّص المطوَّل، لكي يقدِّم لنا نصًّا محبوكاً، حاوياً لأهم النِّقاط التي أراد أنبا ميخائيل أن يقولها في كتابه. بل أضاف من عنديَّاته أحياناً. إذ استطاع بهذا الملخَّص أو بهذا المختصَر الذي قدَّمه لنا، أن ينقِّي النَّص الأصلي لهـــذا الكتاب من أسلوبه الضَّعيف أحياناً، كما وصل إلينا من النُّسَّاخ، بل ومن والاستطراد غير المبرَّر أحياناً أُخرى. إلاَّ أنه تغافل كُليَّة عن اقتباس أيٍّ من أقوال الآباء التي وردت في النَّص المطوَّل.

وبرغم ذلك، فإنَّ النَّص الكامل لهذا الكتاب، كما ورد في مخطوطات الفاتيكان، هو نصٌّ مهم. ذلـــك لأنَّ الذي قام بتلخيص النَّص، قد أغفل القسم الأوَّل منه إغفالاً كاملاً، برغم أنه يحوي عناصر مهمَّة لم يرد ذكرها في القسم الثَّاني من الكتاب، وهو القسم الوحيد الذي تمَّ تلخيصه من الكتاب.

مقابلة بين بنود النَّصَّين المطوَّل والمختصر لكتاب "عادات الأقباط"

النَّص المطول للمقال – طبقاً لمخطوط رقم (عربي ١٥٩) – يحوي مقدِّمة وخمسة عشر بنداً، بينما النَّص المختصـــر

1- George Graf, *Ein Reformversuch innerhalb der koptischen Kirche im zwölften Jahrhundert (Collectanea Hierosolymitana. Veröffentlichungen der wissenschaftlichen Station der Görresgesellschaft in Jerusalem*. II. Band), Paderborn 1923, nach den Hss. der einschlägigen Werke des Michael von Dimyat.

٢– Joseph von Görres كاتب ألماني كاثوليكي (١٧٧٦–١٨٤٨). وقد تأسَّست جمعيَّة باسمه تكريماً له سنة ١٨٧٦م.

3- O.H.E. Burmester, in Le Muséon 45 (1932), p. 78, 83-84.

٤– هل يكون مقاره الرَّاهب نفسه هو الذي قام بتلخيص كتاب 'عادات الأقباط'؟

له، يحوي عشرة بنود فقط. وهذه البنود الخمسة عشر هي:

١- منع الاعتراف السِّري على الكاهن.

٢- أننا لا نصوم للتَّكفير عن الإمبراطور هرقل، ولا نأكل السَّمَك في الأسبوع الأوَّل من الصَّوم الأربعيني.

٣- أننا لا نقطع الصَّوم في عيد الأربعين شهيداً بسبسطيَّة[٥].

٤- وكذلك لا نقطع الصَّوم في عيد البشارة لوالدة الإله العذراء.

٥- قص شعر الرأس.

٦- منع استعمال الصَّندراكا كبخور في الكنيسة.

٧- عدم السُّجود في عيد الخمسين.

٨- رشم إشارة الصَّليب بإصبع واحد، ومن اليسار إلى اليمين.

٩- منع الزِّيجة بأقارب الدَّرجة الثَّانية.

١٠- الكهنة يخلعون الأحذية عند دخولهم الهيكل.

١١- عن الختان.

١٢- عن التَّناول.

١٣- عدم نقل المناولة من مكان إلى آخر.

١٤- صرف المناولة بالماء.

١٥- أكل الفول والتِّرمس بعد التَّناول.

ومن أجل ذلك، فإن النَّص المختصر لهذا المقال مفقود منه خمسة بنود هي:

١- أننا لا نصوم للتَّكفير عن الإمبراطور هرقل، ولا نأكل السَّمَك في الأسبوع الأوَّل من الصَّوم الأربعيني.

٢- أننا لا نقطع الصَّوم في عيد الأربعين شهيداً بسبسطيَّة.

٣- وكذلك لا نقطع الصَّوم في عيد البشارة لوالدة الإله العذراء.

٤- عدم السُّجود في عيد الخمسين.

٥- عن التَّناول.

جانب من مقدِّمة النَّص المطوَّل في قسميه الأوَّل والثَّاني

مقدِّمة القسم الأوَّل (ورقة ٣ظ):

"لَمَّا رأيتُ قوماً من إخوتي القبط بارك الله عليهم وأصلحهم، أنهم أحدثوا في هذا الوقت أسباباً قصدوا بها إظهار أنفسهم وإتِّباع الخَلْف (المخالفة) لفخر الدُّنيا، والتحيل (والتَّحايل) على حصولها، وادعائهم بأنَّ الذي أحدثوه قد كان القبط يعتمدوه قديماً وليس لإبطاله سبب. وموَّهوا على من اتبعهم، بأنَّ غير القبط من كافة النَّصارى على حق في اعتماده، وإذا خوطبوا فيه، قالوا لمن يخاطبهم: 'أوقِفنا على ميمر بإبطاله، أو سيرة تدل على النَّهي عنه' ...

٥- ليس الصَّوم في عيد الأربعين شهيداً، بل حلّ الصَّوم في عيدهم. حيث يقع عيدهم في ١٣ برمهات/ ٢٢ مارس من كلِّ سنة، ويكون دائماً في داخل الصَّوم المقدَّس الكبير.

مقدِّمة القسم الثَّاني (ورقة ٦ ج):

ويقول الذي (الذين) أحدثوا في القبط هذه البدع: 'إنَّ جميع الأُمم في اعتماد ذلك، على حق. وأنَّ من خرج عنه من القبط مخطئ'. فينبغي أن نعلم أوَّلاً أنَّ كثيراً من عظيم ما في أيدي كافة شعوب النَّصارى على اختلاف ألسنتهم، وبُعد مواطنهم، إنما وصل إليهم على حُكم التَّوارث من غير أن يوجد له ترتيب في كُتُب الله المنزَّلة، أعني كُتُب البيعة التي أسلمها إلينا التَّلاميذ الأطهار خاصة ... أنا أذكر بعضاً [من] ذلك وهو: (ورقة ٦ظ) تقديس ماء الغطاس. القُدَّاس على القصريَّة. ضرب النَّاقوس أو الجرص (الجرس). القُربان بالخمير أو بالفطير. اتخاذ دُهن البرسم (البلسم) ميروناً، لأنَّ كلَّ زيت يُقدَّس يُسمَّى ميروناً، فأمَّا دُهن البلسم فلا (فلم) يعمل به أحدٌ من التَّلاميذ. طبخ الزَّيت أربع طبخات بالأوفاوى وخلطه بدُهن البلسم، والدُّرور الذي (التي) يدر (تُدر) فيه. إيجاد الصُّوَر في الكنائس. تغسيل الموتى. وأشياء أُخر كثيرة غير ذلك.

ثالثاً: حول "الرِّسالة إلى مرقس بن القُنبر"

بعد أن قوبل القس مرقس بن القُنبر بمقاومة شديدة من الكنيسة القبطيَّة، انضم في النِّهاية إلى الكنيسة الملكانيَّة. وبعد انضمامه إليها، كَتَبَ إليه الأنبا ميخائيل مطران دمياط رسالة، أنشرها لأوَّل مرَّة باللُّغة العربيَّة عن مخطوط رقم (عربي ١٤٥) بمكتبة الفاتيكان. وفيها يوبخه بسبب كُفره، ويختمها بدفاع عن الطَّبيعة الواحدة في شخص السيِّد المسيح، مستنداً إلى الكتاب المقدَّس وتقليد الآباء.

وكان الأب جورج جراف G. Graf قد ترجم هذه الرِّسالة إلى الألمانيَّة، ونشرها في المرجع السَّابق ذكره من قبل، وهو بعنوان: "محاولة إصلاح من داخل الكنيسة القبطيَّة في القرن الثَّاني عشر"، وذلك عن مخطوط رقم (عربي ١٥٨) بمكتبة الفاتيكان.

جانب من نص الرِّسالة (ورقة ١٤ظ، ١٥ج)

"... لقد كثُر تعجُّبي، وتقسَّمت فكرتي، وحملتُ أمرك فيما عملته على أحد أمرَين؛ إمَّا أن يكون الشيطان خزاه الله طمس حسَّك، وأنساك مأثور علمك، أو طلب الرِّئاسة أعمى بصيرتك وأطال خزيك. وحملَتْني نفسي على ابتدائك بالمكاتبة، إشفاقاً عليك ورأفة بك. لعلَّ يعود إليك غاربُ عقلك، أو تنبئ بما لعلَّه يُقبل من عُذرك ... فتدبَّر ما كتبتُ به إليك، وكان مختصراً إلى أبعد غاية. فإن كان فيه حلاً لشكٍّ وتخلُّفاً لنُسك[٦]، وإلا فبيِّن عن ما اخترته لنفسك. وإن أجبتَ، فاحذر في جوابك الهذيانات والخرافات والحشو الفارغ والمغالطات. بل كما كتبتُ إليك النُّصوص من كُتُب الله وأقوال أصفيائه، كذلك فاجعل إجابتك، إن كان لك إلى ذلك سبيل، وإلاَّ فعُد إلى الحق [و] احذر أن تميل عنه".

ويختم الأنبا ميخائيل هذه الرِّسالة بقوله (ورقة ٢٢ج، وظ):

" على أنني أتوهَّم أنَّ اعتقادك غير الاعتقادَين، اعتقاد اليعاقبة واعتقاد الملكيَّة. أعني فإنك إنما تتستَّر بالانتساب، لأنَّ كُتُبك تشهد عن اعتقادك، بأسباب ما هذا مكان ذكرها. فإن كان الأمر على ما توهَّمته في ضعفي من اعتقادك معرفتي باطنك، لأكتب [فسأكتُب] إليك بما في ذلك من خلل وخروج عمَّا تضمَّنته كُتُب الله، وأقوال قدِّيسيه، وعن الأمانة المستقيمة بإرشاد الله، وعونه، وحوله[٧]، إن شاء الله تعالى".

٦- ترجمها جراف بمعنى "فضيلة".
٧- أي: قُدرته.